الدكتور غراهم

فقدت جامعة بيروت الاميركانية طبيباً من خيرة اطبائها بل من خيرة اطباء كندا والولايات المتحدة بل من خيرة اطباء اوربا واميركا

وقد كان في جيله لتلامذته وللمدرسة الطبية الاميركانية في بيروت ما كان المرحوم الدكتور فانديك والدكتور ورتبات لتلامذتهما ولتلك المدرسة في جيلهما مع بعض الفوارق الآتية

(اولاً) ان خدمة المرحوم الدكتور هرس غراهم بلغت اثنتين وثلاثين سنة ونيفاً واما خدمة المرحومين للمدرسة فلم تتجاوز التسع عشرة سنة للمرحوم ورتبات والاربع عشرة للمرحوم كرنيليوس فانديك

(ثانياً) ان الصفوف (الفرق) في ايام استاذينا الكبيرين فانديك وورتبات كان معدّل عدد تلامذتها اقلّ منهُ في ايام المرحوم غراهم فضلاً عن قصر مدة سني خدمتهما بالنسبة الى مدة سني خدمتهِ كما المعنا . ولذلك فتلامذة المرحوم غراهم بلغ عددهم نحواً من خمسة اضعاف عدد تلامذتهما . ولا يضاح ذلك اقول ان عدد تلامذة استاذنا الاكبر كرنيليوس فانديك الذين اخذوا شهاداتهم الطبية في ايامهِ لا يزيدون عن السبعين تلميذاً واما عدد تلامذة المرحوم غراهم فبلغ الى السنة الفائتة خمسمئة تلميذ ونيفاً . وكانوا اي تلامذة استاذنا الاكبر اكثرهم ان لم يكن كلهم من سوريا واكثر هؤلاء الاكثر من لبنان فيما ارجح بخلاف تلامذة غراهم فانهُ كان بينهم الكثيرون من الارمن واليونان حتى كاد اللبنانيون يضيعون بينهم فضلاً عمن اتوا من مملكة ايران ومن العراق وكردستان وروسيا ومن الافاصول والبلغار شمالاً وشرقاً ومن قبرص وجزر اليونان غرباً ومن مصر والسودان الى الحبشة جنوباً وكل هؤلاء فضلاً عمّن قد جاؤا من المهاجر حملوا معهم اسم غراهم استاذاً من اكبر الاساتذة وطبيباً من اكابر الاطباء الذين يشار اليهم بالبنان كما كان يشار استاذينا المرحومين الاّ ان دائرة شهرة المرحوم اتسعت وامتدّت على نسبة عدد تلامذتهِ وعلى نسبة تعدّد بلدانهم وكثرتها

قضى هذا الاستاذ الكبير نحبهُ ومضى الى رحمة ربهِ في سبيل من مضى صباح

الاثنين ٢٧ شباط الماضي (فبراير) ودُفن يوم الثلثاء ثاني يوم وفاتهِ

احس يوم الاثنين في عشرين شباط بشيء من الانحراف في صحتهِ فلم يحفل بهِ وزاد ما بهِ من الانحراف يوم الثلثاء فنسب ذلك الى بدء نزلة صدرية كانت اعتادت ان تنتابهُ من قبل واستمرّ على ما كان عليهِ من تعليم وزيارات طبية كعادتهِ فدعي ذلك النهار لعيادة مريض مصاب بالتهاب دماغي من قبيل مرض النوم او نوع منهُ ويُظَن انهُ أخذتهُ عدوى المرض من مريضهِ هذا . ويوم الاربعاء بعد الظهر دُعي الى وادي شحرور فذهب وعاد قبيل الغروب وهو يحس بقشعريرة برد وقشعريرة وقبل ان يصل الى بيتهِ وجد احد اصدقائهِ ينتظرهُ ليعود مريضاً عندهُ فذهب مع ذلك الصديق على رغم ما كان يشعر بهِ من الضعف والانحطاط . واشتدّ عليهِ البرد في بيت ذلك الصديق بما لم يستطع اخفاءهُ وتحمّلهُ فلُفّف بحرامي صوف وهكذا وصل الى بيتهِ ومع ذلك بقي يكابر المرض ويقاومهِ

حكت مسز غرام قالت لمّا استفاق من نومهِ صباح الخميس رأيت البطء ظاهراً في قيامهِ وقعودهِ ولباسهِ وسائر حركاتهِ بما لم اعهدهُ منهُ من ذي قبل ولما جلس على المائدة رايت ازرار صدرتهِ غير مضبوطة التزرير وكذلك شريطة حذائهِ . وهذا مما لم يسبق لهُ بهِ عادة فانهُ مذ كان لم يكن يتغافل عن الاناقة اللائقة في اللباس والحذاء وما اليهما . قلت فعلت مما رأيت انهُ ليس على استواء في صحتهِ فقلتُ لهُ أليس من الافضل ان تستريح اليوم في فراشك وترسل الى تلامذتك انك باقٍ في البيت فاجابني احبّ اليّ ان الاقي حتفي في شغلي لا على فراشي قال هذا وترك البيت الى المدرسة وهيئة التعب بادية على وجههِ وفي جميع حركاتهِ

ولحظ تلاميذهُ في المستشفى اثناء سماعهِ تقاريرهم الطبية كلٌّ عن مريضهِ او مرضاهُ انهُ لا تنجاةَ لهُ على استماعها كعادتهِ ولحظوا انّ احدى شرائط حذائهِ محلولة وانهُ حاول عقدها غير مرّةٍ فلم يقدر فتركها على حالها. ولمّا تمّ سماع التقارير قام يريد الدخول الى احدى الغرف الخصوصية فلم تساعدهُ قواهُ فسقط الى الارض لا يغني فتُحمل حملاً الى سرير في المستشفى فبقي فيهِ الى ان لفظ انفاسهُ الاخيرة

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى عرفت بيروت عن آخرها بمرضهِ واشتدّ قلق الناس عليهِ يوم الجمعة مساء وتواردوا رجالاً ونساء على بيتهِ وعلى المستشفى يسألون عن صحتهِ وزاد اضطراب المدينة عليهِ مساء السبت ونهار الاحد فلم يبق حديث

غير حديث غرام او الحديث عن غرام وعن ضعف الامل بشفائهِ وعظم الخسارة التي تخسرها المدينة والبلاد عموماً بفقدهِ

وبدأ الناس يتحدثون باخلاقهِ وماكان من شدة اهتمامهِ بمرضاهُ فضلاً عن مهارتهِ في صناعتهِ واخذوا يقصون عنهُ اقاصيص كانت الى ذلك الوقت محفوظة في صدور اصحابها اقاصيص عما كان يفعلهُ سرًّا من مساعدة من كان يراهم محتاجين الى المساعدة حقيقة ويستحقونها وعن عرفانهِ الجميل لمعارفهِ واصدقائهِ ولاسيما لمن كان منهم اندفع بعامل شهامة لتقديم خدمة لهُ ايًّا كان

سمعت محدّثاً يحدّث قال اول ما جاء الدكتور غرام الى بيروت كان رقيق الحاشية وكان يجبّ ان يظهر بمظهر اجتماعيّ يليق بهِ وبصناعتهِ ومركزهِ فذهب الى فلان احد الخياطين وقال لهُ هل تصنع لي ثلاث بذلات ثياب وتمهلني بالثمن مدة قال الخياط مظهراً الاريحية والمسرة نعم بكل سرور اصنع لك ما شئت وامهلك بالثمن ما شئت

حدثَ بعد ذلك أنْ مرض هذا الخياط فاستدعى الدكتور غرام ولما أبلّ طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا ورقة حساب لك عندي فقد سبق فدفعتها لي معروفاً قال الخياط لكن يا دكتور انا موفّق في شغلي لله الحمد واستطيع ادفع حسابك ولا اشعر بشيء من التضييق على نفسي وعيالي ولا على شغلي وراس مالي فلم يسمع المرحوم برعايتهُ ولا اصغى لالحاحهِ في قبول اجرة زياراتهِ

ثم حدث ان مرضت امرأة الخياط فدعاهُ لعيادتها وبعد ان تماثلت الى الصحة ولم يبقَ من حاجة الى تطبيب ولا الى طبيب طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا حساب لك عندي واصرّ الخياط على انّ لهُ حساباً. وعلمت من المحدّث ان الدكتور رحمهُ الله ما زال الى ان توفي لا يتقاضى صديقهُ الخياط الاّ نصف ما كان يتقاضى امثالهُ ممن كانوا يتطببون عليهِ

لما اشتدّ الخبال بالدكتور نهار الاحد لم يبقَ بيت من بيوت بيروت المعروفة لم يعرف ذلك كأن مئات من التلغرافات او التلفونات كانت تنقل اخبار مرضهِ وتقارير الاطباء اليهِ بل كان يتناقل باسرع من البرق ما كانت تهمس بهِ عنهُ الاطباء همساً فيما بينهم. واسبابهُ ان المتوافدين الى بيتهِ والى المستشفى للسؤال عنهُ كانوا كثيرين يأتون جماعات جماعات فتلتقي الجماعة الراحمة مع القادمة احياناً

على باب بيتهِ او على بوابة المستشفى وكان الراجعون يسألون وهم في الطريق وعلى ابواب بيوتهم قبل ان ينزلوا من مركباتهم او اوتومبيلاتهم عن سلامة الدكتور وماذا سمعوا عنهُ وما يجيبون بهِ كان يتناقلهُ السامعون الى جيرانهم ومن هؤلاء الى جيرانهم وهلم جرًّا وكانت الامهات اشدّ حزنًا وجزعًا عليهِ من الآباء . وايُّ ربّة بيت معروف في بيروت لم تكن تعرف الدكتور غرام ولها تمام الثقة بهِ إنْ من جهة نفسها او من جهة زوجها واولادها

يوم الاحد مساء ظهرت عليهِ امارات التحسن فخفَّ وجيب القلوب واستبشر الناس وباتوا يتطلعون بالآمال وكذلك اصبحوا وفاتهم اختبار الاجيال الذي اعرب عنهُ الشاعر حيث قال

وسالمتك الليالي فاغترتَّ بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

فانهم قبل ان تهزهم هزّة الفرح بخبر تحسن حالهِ فوجئوا بخبر موتهِ وكان ذلك الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ صباحًا . توفي فجأة بما وصل من الالتهاب الى مركز التنفس فعاد التراب الى التراب وعادت النفس الى خالقها . وما كان اكثر الباكين عليهِ وما كان اكثر المسترجعين

اما الجامعة الاميركانية فكأنما اصابها زلزال انتفضت لهُ من اساساتها وحادت منهُ ذات اليمين وذات الشمال جدرانها فوقف من فيها حيارى اساتذة ومعلمين وتلامذة لا ينبسون ببنت شفة وخفتت اصواتهم جميعاً

اما التلامذة الطبيون فكنت تراهم سفع الوجوه مبهوتيها مطرقين باعينهم الى الارض كأنهم يخافون ان يتكلموا فيقولوا غير ما يريدون. ولما اعلن نائب الرئيس خبر وفاتهِ كان كالمتعثر بدموعهِ تحسُّ ذلك في صوتهِ وكأنك بهِ لا يحبّ ان يصدّق ما يقول لهولهِ وشدة وقعهِ في نفسهِ فذكرتني حالتهُ بقول القائل منذ الف سنة

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيهِ بآمالي الى الكذبِ
حتى اذا لم يدع لي صدقهُ املا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت بهِ في الافواه ألسُنُها والبرّدُ في الطرق والاقلام في الكتب

وكأني بأبياتهِ هذه تعبّر احساسات نائب رئيسنا وجميع اساتذتنا واحساسات بقية المعلمين والتلاميذ ولاسيما تلاميذ القسم الطبي

ولم يلبث الحال طويلاً بعد اعلان خبر الوفاة حتى نظر اهل رأس بيروت

الراية الاميركانية تخفق مخنوقة على سارية عالية فوق برج بناء القسم العلمي ثم لم تلبث الريح التي كانت تهب كليلة ان هبّت هوجاء ثائرة تحاول تمزيق الراية او ترمي بها في مجاهل الفضاء فلما اعياها ذلك عمدت الى السحائب فساقتها امامها جبالاً وعقدت مياهها دموعاً اراقتها حزناً بالغاً على من استنزف عيون البيروتيين دمعاً وقلوبهم اسى واسفاً ولاسيما ابناء جامعتها الاميركانية

نقل جثمان المرحوم بعد ظهر الاثنين الى صدر منتدى الجامعة الاكبر واقبل تلاميذهُ واصحابهُ يودعونهُ ويرونهُ لآخر مرّة في هذه الحياة الدنيا فتوارد المودعون زرافات زرافات من بعد ظهر الاثنين الى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء

وفي الساعة العاشرة صلي عليهِ فكان المشهد رهيباً جدًّا فانهُ على امتلاء النادي حتى لم يعد يسع الحضور وكاد لا يستطيع متقدم ان يتقدم ولا متأخرٌ ان يتأخر كان السكوتُ تامًّا لا يجسر متنهّد ان يتنهّد ولا باكٍ ان ينشج حتى ولا مصدور ان ينفث. وبعد الصلاة حمل التابوت تلامذتهُ الى بوابة الطبيّة حيث وضع في صيارة خاصة والناس قد ملأوا الساحات والطرقات والمشارف المجاورة

وسارت بهِ جنازتهُ وكأنما سارت المدينة كلها وراءها ولا غرابة في ذلك فان الشخصية الكبيرة تؤثر في النفوس على نسبة بعد همتها واتساع دائرة عملها سواء كان صاحب تلك الشخصية طبيباً او معلماً عالماً من علماء الدين الافاضل او من علماء الدنيا لا فرق او كان ذا منصب شغلهُ لوجاهتهِ وغناهُ فانهُ يكتب في النفوس وعلى القلوب باعمالهِ صورة تظهر بالصورة التي اراها امام عينيَّ وانا اكتب ما اكتب عن هذه الشخصية الكبيرة اعني شخصية الدكتور غرام

من يصنع الخير لا يعدم جوازيهُ لا يذهب العرف بين الله والناس

ولد الدكتور غرام في كرلتون من اعمال كندا في الخامس عشر من آذار (مارس) سنة ١٨٦٢ وكان كبر اولاد ابيهِ من امرأتهِ الثانية فهو اخ لسبعة عشر اخاً واختاً

وكانت كرلتون مسقط رأسهِ مدينة صغيرة حينئذٍ لكن كان فيها من المدارس العمومية ما لا ينقص عن غيرها من امثالها فدرس فيها الى ان بلغ السابعة عشرة وعلّم بضعة اشهر في بعضها ثم ترك التعليم واقبل على صناعة ابيهِ وكان صانع مركبات وجعل همهُ صبغ المركبات وتلوينها وبعد ان اتقن هذه المهنة عاد الى طلب

العلم وتتلمذ لجامعة تورنتو ثم لجامعة ولاية مشيغان حيث اخذ شهادتهُ الطبية ثم ارتبط بخدمة مجمع بوسطن التبشيري طبيباً لارسالية عينتاب . وفي طريقهِ اليها مرّ بالاستانة وصدّق على شهادتهِ الطبية . وفيما هو هناك تعرّف بابنة احد مشاهير الوعّاظ الاميركان فاقترن بها في الثالث من تموز (تشرين الثاني) سنة ١٨٨٥ فكانت لهُ افضل رفيق ومعين الى ان توفاهُ الله

وبقي في خدمة الارسالية في عينتاب ثلاث سنوات رفيقاً للدكتور شبرد ومساعداً لهُ في مستشفى تلك المدينة ومدرستها الطبية التي كانت تابعة لكلية تركيا المركزية او الوسطى (Central Turkey College) وانتقل في شتاء سنة ١٨٨٨ الى حلب حيث بقي نحواً من سنة في خدمة ارسالية في تلك المدينة ومن هناك انتقل الى بيروت سنة ١٨٨٩ وارتبط بالكلية الاميركانية الطبية فلم يلبث ان عين استاذاً فيها

ولم يتم السنة حتى مكن نفسهُ في نفوس التلامذة ورفاقهِ من الاساتذة والمعلمين وامتلك اكرام دائرة مديري الكلية ولم تأتِ السنة الثالثة حتى عُرف اسمهُ في بيروت وفي اماكن عديدة خارجاً عنها وصار يُقصد من الجهات البعيدة ويرجع اليهِ في بيروت عند الشدّة

عرفتُ من احد تلامذتهِ سنة ١٨٩٥ ان تلامذة الكيمياء وكان قد تولّى تعليمها بداهي تغيب استاذها كانوا يجتهدون ان يراجعوا مطوّلات هذا العلم تحككاً بهِ وتبجحاً بعلمهم عليهِ فكانوا يرونهُ ابداً فوقهم يعرف ما عرفوهُ وما يزيد عنهُ وهكذا اتفق لغيرهم في فرع آخر لم يكن استاذهُ جرّبوا ما جرّبهُ طلبة الكيمياء فوصلوا الى ما وصل اليهِ تلامذة ذلك العصر

قال فيهِ احد رفاقهِ الاساتذة انهُ « عثُّ الكتب » لانهُ كان لا تفارقهُ الكتب يطالعها مطالعة درس وتبحر لا مطالعة تلهٍ وتشبع فليعتبر بهِ المعتبر وليعلم ان شهرتهُ ومكانتهُ في النفوس لم تأتهِ عفواً ولا اتفاقاً ولكنهُ اكتسبها بشقّ النفس وبعد الهمة والمثابرة على العمل

وقبل ان اختم كلامي عنهُ اقول انهُ كان شديد العناية بمريضهِ يظهر اعظم اهتمام بمرضهِ مهما كان ويبالغ في فحصهِ فلا يفرغ من ذلك حتى يملك ثقة مريضهِ تمام الامتلاك . وكان فوق ذلك حلو المعشر فكه الحديث سريع الملاحظة لا يتبرم بطيل ولا يتضجر من كثرة مراجعة ولو كانت في غير محلها جبر ضومط